كلية التربية الفنية

بين التراث والمعاصرة – ومواقف التغير

إعداد

أ.د/ مصطفي الرزاز

أستاذ متفرغ – قسم التصميمات الزخرفية

كلية التربية

جامعة حلوان

AmeSea Database- ae- Abril-2017-0206

بين التراث والمعاصرة– ومواقف التغير

د.مصطفى الرزاز
أستاذ متفرغ– قسم التصميمات الزخرفية
كلية التربية الفنية– جامعة حلوان

تقديم:

بالرغم من انتشار موضوع هذه الدراسة وتعدد من تناولها في أرجاء كثيرة من الوطن، لكونها ترتبط بمنهج بصري يتعلق بموقف الفنان والمفكر والمفكر العربي من جريات الفن والثقافة الغربية– الأوروأمريكية– سواء في محيطها الجغرافي، أو في الدوائر الشرقية التي نحت نحوها، وتبنت منهجها فأصبحت أوروبية التوجه والمزاج والتعبير، شرقية الموقع الجغرافي.

ومع كثرة ما كتب وما قيل في علاقة التراث بالمعاصرة، وموقف فنانيها من فنون الغرب المقتحمة والمهيمنة، من خلال مناهج التعليم والتوجهات المؤسسية، وآليات السوق وجهود التنظير والنقد والنشر العالمية، بين الدوران الكامل في فلكها والتخلي عن ملامح خصوصيتها والانفصام عن ثقافتها الجماهيرية، وبين الاعتصام بالتراث وتقديمه فيحدث انفصام عن روح العصر، وبين محاولات البحث التجريبي في توليفات ترمي إلى النظر إلى التراث نظرة نقدية بعيدة عن التقديس، والانطلاق منه ومن مثيرات البيئة والمجتمع في صياغة فن معاصر يحمل ملامح منفتحة ومتجددة للهوية.

بالرغم من تلك الجهود التي شغلت الكتاب والفنانين طوال النصف الثاني من القرن العشرين وحتى الآن، فإن تشريحا لعلاقة الحضارة بالثقافة وتباينات حضارة الغرب الحداثية العلمية التكنولوجية، العقلانية القياسية والتي تعلي مكانة الفرد وثقافتها والمتسقة معها، والحضارة التقليدية لبلادنا المستمسكة بتراثها الماضي، بالرغم من اضمحلال الحضارة التي أسست له، ومن ثم كان اهتمام هذه الدراسة بتقديم خارطة معرفية لتلك العلاقة المهمة بين حضارة جديدة وحضارة قديمة، والأنساق الثقافية والفكرية التي تتعايش وتتوافق أو تتباين معها، حيث تكمن الأزمات وتشيع التصورات والغموض المفاهيمي والتفسيرات التأويلية والانتهازية أحيانا، الأمر الذي يحول البحث الثقافي من هدف اكتشاف سبل ومناهج تصحيحية دافعة محققة للتوافق الثقافي والحضاري، إلى عشوائية من الشعارات المنفتحة بنعرتها الجوفاء.

تصور معرفي للعلاقة بين الحضارة والثقافة:

يؤسس هذا التصور لمفهوم الحداثة في مقابل مفهوم التقليد، حيث أن الثقافة التي تتولد من الحضارة وتنسجم معها وتتجدد مع مسيراتها لن تختلف عن ثقافة الأمس التي تتجسد في حياة اليوم بعد أن تقادمت الحضارة التي ولدتها، وانصراف أهلها إلى حضارة اليوم دون أن تنسجم معها، في النموذج الأول تعيش الثقافة توافقا دافعا مع الحضارة، وفي النموذج الثاني

AmeSea Database- ae- Abril-2017-0206

تعيش الثقافة حالة متأزمة مع حضارة غير قابلة للتجانس والانسجام معها، حيث ثقافة الأنا تصطدم مع حضارة الآخر باعتباره مدمرا لهويتها، وتنشغل بتصورات عقيمة تعوق عبور حاجز التخلف أو تسلم فتصبح مسخا مقلدا يبنى على أرضية رخوة يهتز أمام المواقف.

الحضارة الغربية الحديثة والحضارة التقليدية:

هما نظامان على قدر كبير من التباين، فالأولى حية متجددة فاعلة والثانية خاملة متراجعة على النحو التالي:

الحضارة الغربية	الحضارة العربية
حضارة علمية وتكنولوجية اعتمدت على قوة دفع الثورة الصناعية، وعلى مجتمعات ذات اتساق من القيم والاتجاهات والسلوك الاجتماعي تعتمد على قيم العقلانية والعلوم والتكنولوجيا والفردية والبحث الوضعي القياسي، وتتحول الحضارة الغربية وتتحول من الصناعة إلى مجتمع المعلومات العالمي إلى مجتمع المعرفة، والمفاهيمية وتتبنى مناهج الحداثة ومابعدها.	تعتمد على أنماط غير علمية، قدرية وميتافيزيقية قيود على حرية التعبير والتفكير تعاني من عدم التوازن مع متغيرات العصر، ومن ضيق الأفق السياسي مما يسهل استدراجها في حروب وانقسامات تؤدي إلى إهدار منجزها العلمي والتكنولوجي وتستند إلى التراث وإلى التقليد.

الحداثة والتراث:

الحداثة تتبنى مبدأ التغيير باعتباره قيمة لا تتوقف، وهي وقود الحيوية لكل الحضارات الفاعلة، ولا تتسق الحداثة مع التعامل مع الماضي وتراثه وكأنه شأن مقدس ومرجعية نهائية وكافية، ومن ثم فإن الحداثة كمفهوم وسلوك تتعارض مع التقليد على النحو التالي:

الحضارة الغربية	الحضارة العربية
ثقافة عصرية جديدة تتسق والحضارة السابقة، والحداثة هي روح هذه الحضارة والثقافة المتفاعلة معها، وهي تمثل ثقافة الحاضر	التقليد هو الثقافة الموجودة في مجتمع امتلك ذات يوم حضارة، ثم بادت المعالم المادية لتلك الحضارة، وبقيت ثقافتها أي آثارها البارزة على الأقل وهي أمور تتعامل مع الماضي بالإجمال

AmeSea Database- ae- Abril-2017-0206

ومن ثم فإن ثقافة الحضارات التقليدية تمثل جذورا تمتد في أعماق الناس ، وهي أكثر حضورا ودواما من الحضارة نفسها التي اندثرت، ومن الأنظمة الاجتماعية ومن أنماط التعامل مع العالم الحاضر.

ويربط أبناء تلك الحضارات التقليدية بين التقليد التراث الذي يعتبرونه مقدسا لا يحتمل التغيير فيصبح عاملا على تكريس التقليد والتحجر، ويعرف خاتمي الرجعية بأنها الرجوع إلى الماضي والوقوف عنده بما يفقد الحساسية للنشاط الاختراعي أو المؤثرات الصادرة من ثقافات أخرى فيصل إلى نقطة الركود.

الحضارة والثقافة:

ينظر البعض إلى الحضارة باعتبارها ثقافة معقدة واسعة الانتشار متفوقة تكنولوجيا ومحققة لإنجازات إبداعية في العلم وفي الفن، بينما يفصل البعض بينهما من حيث اختصاص الأولى بالجوانب العلمية والمادية، بينما تختص الثانية بالجوانب الفكرية والرمزية والتعبيرية، والحضارة تعنى بالجوانب الموضوعية في حين تعنى الثقافة بالجوانب الذاتية للإنسان.

وتشكل العلاقة بين الحضارة والثقافة حالة الاتساق أو الانفصال التي تؤدي إلى تقدم المجتمعات أو جمودها، وفيما يلي تصورا لتلك العلاقة في المجتمع التقليدي في مقابلة المجتمع الغربي الحديث.

الحضارة والثقافة

حضارة المجتمعات التقليدية	**حضارة المجتمعات الحديثة**
في حالة انفصال وتباعد، حيث تتراجع الحضارة بينما تتواصل الثقافة بمعزل عنها، وتظل متمسكة بتصورات وقيم تتناقض مع القيم والتصورات المنسجمة مع معطيات ومتطلبات الحضارة الجديدة، فتتحول إلى بقايا معالم ثقافية لا تسندها حضارة قائمة (أمة في مهب الريح تعاني من التناقض والتضاد)	حضارة وثقافة جديديتين في حالة تفاعل صحي واتساق وانسجام وتواؤم.
مجتمعات الثقافة القديمة تعاني من النظام	اختراق التراث وإزاحته، قامت على الشك في تقاليد الكنيسة الفكرية والأخلاقية، وفي تقاليد النظام الإقطاعي الاجتماعية والاقتصادية والفنية.

AmeSea Database- ae- Abril-2017-0206

وفي ضوء تباين العلاقة بين حضارتنا وحضارة الغرب والثقافة المواكبة لكل منها تتضح أزمتنا الرئيسة – الروحية والاجتماعية، التي تتباين جوهريا مع أزمة الحياة الغربية، وأن خروجنا من تلك الأزمة مرهون برفع هذا التضاد، فقد كنا نملك تراثا ثقافيا كان توأم حضارة وقرينا لها، لم تعد موجودة الآن ولكن آثارها ما زالت قوية بداخلنا، بينما نواجه حضارة أخرى سادت وامتدت إلى ما وراء حدودها، وتدعى ملائمتها لكل الناس.

المواقف المحتلمة بمواجهة الأزمة الحضارية

AmeSea Database- ae- Abril-2017-0206

ويتأمل هذه التيارات الثلاثة يمكن استخلاص أن أصحاب التيار الأول التشبث بالتراث، وأصحاب التيار الثاني المتباين معهم بصورة كلية يشتركان في عدم القدرة على الإنجاز المتنامي لأن كليهما إتباعي، الأول للتراث والثاني لظاهر الحداثة دون عمقها، وتبنى أشكالها دون بذل الجهد التأسيسي الذي بذلته الحداثة الغربية والفكر المبدع ففقد هويته وظل على ذيل الحداثة دون الوصول إلى قلبها.

بينما يعاني أصحاب التيار الثالث الإصلاحي بين تشتت الأفكار والاتجاهات وبين صعوبة التوفيق بين نظام له تركيبه الخصوصية ونظام مغاير، افتقرت تيارات الإصلاح التراثية والتغريبية والتوفيقية إلى وحدة الرأي، وإلى رؤية متبلورة عن الذات الخصوصية من ناحية، وعن طبيعة الحياة الغربية المقصود اقتباسها وتمثيلها، ومن ثم يصدر عن أصحابها آراء سطحية واهمة ومتصادمة غير أن مكمن الخطر في هذا التوجه هو انتشار النزعة التواكلية، والقفز على مواقف تنظيرية مبتسرة لم تؤسس على وعي واجتهاد والافتقاد إلى الفكر المبدع مما يهدد بفقد الهوية في أول مواجهة مع أي مشكلة.

ومن ثم فإن هذه التيارات التي تنشط في مجتمعنا العربي تعيش صراعا وأزمة بين مفهومها للتراث ومفهومها للحداثة.

التراث والحداثة:

يجد الفنان العربي نفسه متورطا في النقاش الثقافي الدائر حول الموروث والحديث، وهو يعيش تقاليد حية من فنون التراث مازالت ماثلة وموحية، بينما يتعامل مع النموذج الحضاري الغربي في معاشه اليومي وفي قضاء حاجاته العملية ومع الحداثة التي نشأت في الغرب.

ويشير محمد القاسمي الفنان المغربي الراحل إلى "أن الغرب وهو يدفع تيار الحداثة في موطنه الذي أدى إلى قطيعة مع التطورات التقليدية للعام، يساوم ليدفع الوطن العربي إلى تكريس دينامية الخلط بين ما هو تقليدي وما هو حديث، بل ويوظف الحديث لتكريس التقليد، ويستخدم التقليد لتبرير استعمال الحديث، وذلك كله للإبقاء على حالة التخلف والحفاظ على استمرارية البنى المكرسة للعتيق والتقليدي والمناهض لكل مبادرة حرة".

AmeSea Database- ae- Abril-2017-0206

وفيما يلي نوضح الملامح المميزة للتراث من ناحية وللحداثة من ناحية أخرى

التراث	الحداثة
معين الهوية التاريخية والاجتماعية للأمم، وأساس الشخصية الثقافية والتاريخية. ويتمثل في عناصر الثقافة التي تتناقل من جيل إلى آخر مع التمسك بها عاطفيا وروحيا. وهو مكون أساسي للهوية الثقافية لشعب ما لأنه نابع من مشاعره واحتياجاته متأثرا ببيئته وتاريخه ومجتمعه. والاستغناء عن التراث أشبه بخروج السمكة من الماء.	هي النمط الانقلابي على الثقافات التقليدية والتراث حرصا على التغير والتحول الدائمين وهي تيار متصادم يفجر الأزمات كوقود للتجديد، وقد عاش الفنان الغربي تحولات الحداثة في ثقافته فتولدت تيارات الفن الحديث وفنون ما بعد الحداثة متوافقة مع هذا المناخ الديناميكي الحر. كما انتبه الغرب إلى أهمية حركية الحداثة وقيمة الإبداع المتجدد في دفع عجلة التنمية فساندها على المستويين المؤسسي والفردي

إن التسليم للتراث وتصور أنه مقدس لا يحتمل التغيير، والبحث عن القومية بصورة شكلية وسطحية يخل بروح الحرية وبقدرتنا على التوافق مع عوامل البيئة والتاريخ والمجتمع المتغيرة، فيحل التقليد والتحجر موقع التحرر والنمو.

ولان الظروف التي أبدعت فيها الثقافة ملامح من تراثها لم تعد ظروفها الراهنة وباعتبار أن التراث منتج إنساني قابل للتجديد وللنقد، ليتوافق مع التحولات الاجتماعية والسياسية والثقافية للمجتمع، ولأن الحداثة مرحلة عابرة في تاريخ حياة الإنسان وما بعد الحداثة هي حالة تشكل نامية، وليست آخر مراحل التاريخ ولذا فإن استشراف المستقبل يتعامل مع الحاضر ومع الماضي بروح نقدية واعية شجاعة ترنو نحو التقدم والاختراق.

فيتيح لنهر التراث أن يتدفع مواصلا جريانه بالتجديد والإضافة ليلتحم مع مسيرة نهر الحداثة، فيصبح له عمقه العريق، وأفقه الحاضر وإمكاناته المستقبلية، ويلخص محمد خاتمي ما نريده من الحداثة بقوله:

"نحن في حاجة إلى بناء وعي موازي لوعي الغرب بروح الحداثة وطاقة التنمية حتى يتسنى لنا الاختيار الواعي والحكيم، أن التسليم الأعمى لمعايير الحضارة والتنمية الغربية يضرنا كثيرا لأننا نسلم لشأن وارد من الخارج مقحم على حياتنا وحداثته وليدة ملابسات غير التي نعيشها، فنصبح دعاة حضارة سطحية منبهرة وواهمة".

AmeSea Database- ae- Abril-2017-0206

الواقع العالمي الراهن

شكلت السنوات العشرة الأخيرة من القرن العشرين ملامح وتوجهات القرن الجديد، وفي دراسة للسيد ياسين يشخص فيها خريطة مفاهيمه للأوضاع الراهنة في العالم وموازين وميكانيزمات الحوار الحضاري بين الشعوب بداية من سقوط الاتحاد السوفيتي والكتلة الاشتراكية عام ١٩٩٥، وانهيار النظام ثنائي القطبية وما واكبه من صراع بين الرأسمالية والشيوعية، وسقوط تراث النظم الشمولية والتسلطية في مناطق عديدة من العالم إلى ظهور أفكار صراع الحضارات التي تبناها كل من "هنتنجتون" و "فوكوياما"، والتي تركز على تصور أن الحضارة الغربية والرأسمالية تسموا على غيرها من الأيدولوجيات. وينبغي ضمان انتصارها في الحرب الثقافية مع هذه الأيديولوجيات.

ويوضح "ياسين" أن هذه النزعة العنصرية الجديدة كانت بمثابة آلية دفاع عن الحضارة الغربية التي اعتورها الحوار والتي ستدخل مرحلة الانهيار. وقد بشر "هنتنجتون" بحروب ثقافية تحل محل الحروب العسكرية والسياسية والاقتصادية بين حضارة الغرب، وحضارات أخرى قديمة أو متجددة وعلى رأسها الحضارة الإسلامية التي سماها (الخطر الأخضر) ثم جاءت مرحلة التي بدأت بنداء "محمد خاتمي" لمواجهة العنصرية الغربية الجديدة، مناديا باعتماد مبدأ بديلا عن صراعها والذي استجابت له هيئة الأمم المتحدة اعتبارا من عام ٢٠٠١ الذي اعتبرته المنظمة عام حوار الحضارات.

وظهرت شعارات الديمقراطية والتعددية وحقوق الإنسان، في مناخ ملتبس وفي غياب منهج محدد للرؤية الواضحة يحول دون التوظيف الانتهازي أو القمعي لتلك الشعارات، حفاظا على المسافة بين العالمية وبين الخصوصية ، وتجنبا لتفكيك وحدة الدول، ولإتاحة الفرصة لظهور نماذج من الديمقراطية تتوافق مع الخصوصيات الثقافية المختلفة.

ونتيجة لمجتمع القطب الواحدة مع بدايات القرن الحادي والعشرين، وفي ظل بلوغ القرب ذروة اقتصادية وعسكرية وسياسية وفكرية غير مسبوقة ظهرت إرادة السيطرة على كل البشر وطبعهم بنسقها الحضاري الغربي كشرط من شروط البقاء، حيث صناعة ترويج الذوق الواحد والنمط الواحد مستورد بكامله والدعوة إلى تشكيل حضارة عالمية أحادية قمعية معلومة تسيطر عليها القدرات العلمية والتكنولوجية والمعلوماتية المتقدمة، والقوة العسكرية والاقتصادية وما يتبعها من نفوذ وقوة مناورة.

وقد كشفت النوايا العنصرية والتوافقية للعولمة عن أنيابها بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ، ووظفت الهيمنة الناعمة بالجاذبية الإعلامية والفن والثقافة واسعة الانتشار شديدة الإلحاح والثورة الاتصالية الكبرى (الإنترنت) لخدمة التمهيد للهيمنة الخشنة، لنصبح مقلدين نأخذ في الغالب بالمظهر دون الجوهر وهو الخطر الذي ينبه له "محمد سليم العوا" ويصفه بالهيمنة

AmeSea Database- ae- Abril-2017-0206

الناعمة التي تستهدف الجيل الجديد بهدف تنميطه، وإغراقه في صيغ التقليد الاستسلامي، في ظل مناخ حضاري وثقافي وتعليمي لا يسمح للنخبة المفكرة والماهرة بالازدهار في محيطها فتركد أو تهاجر.

ومن معوقات التأهب لحوار الحضارات، انقسام الثقافة في مجتمعاتنا إلى فريق صغير نسبيا يحمل ثقافة نخبوية، فريق يمثل الثقافة الشعبية ذات الأهمية الكبيرة والتأثير المركزي في تشكيل الوعي الاجتماعي والعقل الشعبي وفي ظل ذلك تتصاعد مظاهر الانفصام الثقافي ، وتتسع الفجوة المعرفية بين الفريقين خاصة يما يتعلق بالحساسية الفنية والأذواق والاتجاهات الجمالية، وهو الأمر الذي يفسر انفصال الجماهير العريضة عن فنون النخبة.

فتصبح الحضارة المعينة في مواجهة حضارة أكثر تفوقا، بينما تمارس النخبة فيها مواقف تعزز الانفصام الداخلي في ذات البلد ثقافيا وفنيا.

ويعاود "جابر عصفور" قراءة أفكار الثورة الفرنسية، العدالة والحرية والمساواة من منظور أن المعرفة قوة وسلطة وينبغي توزيع الثقافة على الناس جميعا وتحفيزهم على المشاركة لتحقيق الديمقراطية، وأن القدرة الابتكارية وحق المخالفة ورفض ثقافة الإذعان والخنوع، وتقديم السؤال عن الجواب والشك قبل اليقين، أمورا ضرورية للتنوير.

ويضيف: إن العقل الإنساني لا جنسية له، وهو أكثر الأشياء عدالة بين الناس حيث سبل المعرفة واحدة والعقل الإنساني واحد، وذلك يستدعي تحقيق الخصوصية من ناحية والتوافق الإنساني من ناحية أخرى ومن ثم فإن الاتباع والتقليد ضد إعمال العقل وضد شعارات العدالة والحرية والمساواة.

درس الحضارة الغربية والفن

يتساءل "خاتمي" عن الحضارة الغربية ومدى اعبتبارها خالدة أو نهائية، ثم توضح نظرية قوس الحضارة الذي تمر فيه بدوافع يترتب عليها نشأة ثم ازدهار يصل إلى الذروة في وقت ما، ثم تعاني أعطاب داخلية ومنافسات خارجية، فينحني القوس تدريجيا نحو السقوط.

ونحن نرى أن طول ومدى هذا القوس متغير، ويمكن النظر إلى الشيوعية والى الاتحاد السوفيتي باعتباره نموذج مؤثر في فهم نظرية القوس الحضاري، فقد مر بتلك المراحل السابق ذكرها من بدايتها إلى نهايتها في أقل من قرن واحد من الزمان، بينما استغرق الأمر في حضارات أخرى عدة آلاف من السنين لاستكمال دورة القوس الحضاري كالحضارة المصرية القديمة، والحضارة الهندوصينية، وحضارة ما بين النهرين، والحضارة الإغريقية الرومانية. كما نرى حضارات وصلت إلى أدنى مستويات القوس، ثم عاودت الصعود في مراحل تاريخية لاحقة كما في أوروبا، في الصين واليابان.

AmeSea Database- ae- Abril-2017-0206

خلاصة القول أن الحضارات تتبدل، ولا توجد حضارة ثابتة وخالدة في التاريخ الإنساني، فالحضارة تزدهر بقدرتها على استخدام الطاقة الذاتية الكامنة فيها ومصادر التغذية المتجددة والتفاعل مع الآخر لتوفير حاجات الإنسان، فإذا اختلت هذه القدرة في مواجهة المواقف المتجددة، فقد أتباعها ثقتهم بها فيتجه قوسها إلا الانحطاط وربما الفناء.

وبالنظر إلى الأزمات الداخلية التي تعرضت لها الحضارة الغربية عبر تاريخها، وما ترتب عليها من أزمات مادية وفكرية كبرى، فإننا نلحظ حيوية هذه الحضارة، وقدرتها على عبور أزمانها في قفزات حضارية ساندتها تحولات ثقافية متوافقة ودافعة.

ومن المفيد عند دراسة التحولات الحضارية والثقافية الانقلابية في الغرب، أن نلاحظ اعتمادهم على تراثهم الذاتي في التمرد على الجمود والتقليد أحيانا، وعلى ثقافات الآخر بنوعية الأكثر أو الأقل تمدينا.

فقد قفزت الثقافة الهيلينية الإغريقية قفزة حضارية كبرى باحتكاكها المتفاعل بالحضارة المصرية في الاسكندرية حيث تكونت الحضارة الهيلينستية، ثم بنى الغرب عصر النهضة اعتمادا على جذور التراث اليوناني الفكري والفني، وعلى التراث الروماني الاجتماعي من ناحية، ونهل عن الحضارة الإسلامية في الأندلس خاصة.

وقد كانت الترجمة من العربية إلى اللاتينية في أسبانيا واحدة من المؤثرات التأسيسية للثقافة الأوروبية، بوصفها المحرك الأول للنهضة في القرن الثاني عشر، والانطلاقة الحققية للغرب في مجال العلوم الطبيعية والرياضيات وغيرها ومنهلا للثقافة الجديدة في العصر الوسيط بنزعتها العلمية وتقدمها التكنولوجي والثقافي ليخرج من أسر جمود القرون الوسطى ورفض زحف الخرافات الميتافيزقية على رجال الدين وصولا إلى حقيقة الدين من خلال حركة إصلاحية مهدت لعصر البناء والثورة ثمرة أفكار بعث للنهضة الأوروبية والتحرر وكان شعارها الحرية والعدالة والمساواة، ومؤازرة البرجوازية المطحونة لتصبح وقودا جديدا لعصر الحداثة في الحضارة الأوروبية.

وشهد القرن التاسع عشر تمدراً على كلاسيكيات الحضارة الغربية، الإغريقية الرومانية ، والنهضة والكلاسيكية العائدة التي أسس لها في عهد "بونابرت" لويس دافيد، ومن ثم خلال هذا الانفتاح المتسلح بشعار العدالة والحرية والمساواة حقق الغرب قطيعة ابستمولوجية مع تراثه الفني وحقق الحداثة بتياراتها المتجددة التي فتحت الآفاق الرحبة للتطور الصناعي والتكنولوجي وعبور أزمات القرن التاسع عشر المادية والفكرية، ومن ثم بدأت إرهاصات تيار ما بعد الحداثة الذي خرج من توابع زلزال الحرب العالمية الثانية وشيوع الأفكار العدمية والعبثية التي مهدت لتحويل ثوي فكي وفني جديد.

AmeSea Database- ae- Abril-2017-0206

وأصبحت نزعة العبور والترحال والتخطي سمة مركزية في الفن الحديث. فيقول "فرانز مارك" عام ١٩١٤ ، فلنكسر مرآة الزمن، لنصبح على قدر أعمق من الوعي، وينادى "كاندنسكي" الفنان بأن يبحث عن ما في داخله من مخزون ومشاعر، وأن تتحول عيناه إلى عالمه الداخلي حتى يتوصل إلى التعبير الروحاني عن موسيقى الكون، وكان "جاكستون بولوك" يقول "اللاشء عندي هو كل شيء"، ويقول "أنا لا أرسم الطبيعة، أنا الطبيعة".

نبه كل من "شوبنهاور" و "نيتشه Nietzche" إلى المعنى العميق لغياب المعنى في الحياة فى الغرب، وقد ترجم الفن ذلك تعبيرا عن فقدان الروح، وقد شاركهما في ذلك المعنى الفنانان "دي كيريكو"، و"كاندنسكي" تعبيرا عن الخواء وعن غروب الآلهة، وعن فراع الجنة، ثم تبني هذا المفهوم التشاؤمي فيما بعد شعراء فرنسا وألمانيا فالقرن التاسع عشر، مما أدى إلى الشرخ الذي فصل الفن عن الدين المسيحي في الغرب كما يقول "كارل يونج" حيث أعتمد الفنانين على مصدر الدين بمصدر الطبيعة، وتبنوا قانون الصدفة التي تحرك مصير عناصر الطبيعة، بما في أشكالها من روح سرية تختار مصيرها قدريا دون تدبير أو تنسيق، نزعة تدعو لتأمل فعل الصدفة واكتشاف كود الطبيعة السري، وميكانزمات حركيتها التلقائية اعتمادا على إحساس متفتح يتفاعل مع الخيال والسجية.

ويضيف "يونج" أنه بالرغم من التقدم العلمي المدهش الذي أدى إلى تحطيم الذرة واكتشاف النسبية، فإن مفهوم المادة قد تغير إلى ما يشبه الميتافيزيقيا، وأصبحت العلاقة بين الفيزياء وعلم النفس أكثر وضوحا.

تنبه المفكرون والفنانون لأهمية التعامل مع معطيات ثقافية مغايرة كمصادر تغذية تحولية في مسار الفن الغربي، فبحث الرومانتيكيون عن قوة اللون والبعد الدرامي في الجزائر والمغرب، بعد أن تسلحوا بالمعرفة النظرية الفيزيائية عن اللون في بحث "شيفرو" ويتضح ذلك خصوصا في أعمال الفنان "يوجين ديلاكروا" بينما سعى نفر آخر من الفنانين إلى الترحال بعيدا عن أوطانهم إلى أماكن جذب خاصة، مناطق بدائية كما فعل "بول جوجان" أو أماكن ذات ثقافة وبيئات مغايرة كما فعل "بول كلي" وماتيس وماكيه و "كاندنسكي".

وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى كان "الداديون" ثم "السيرياليون" يعكسون حالة السخط والغضب على واقع الحضارة الأوروبية، الذي أظهر خواءه الداخلي وخرابه الروحي، فدمر نفسه بقوة غير مسبوقة من خلال التعبير عن العدمية الضياع وتداخل الأزمنة والأمكنة، ويلوذون ببحوث "فرويد" و "يونج" في الأحلام واللاوعي، وإبان الحرب العالمية الثانية تظهر المستقبلية على أنقاض التكعيبية التي ارتبطت بعصر الصناعة وتصطدم تجارب الحداثة مع حكم النازي الذي يصف فنانيها بالخيانة الإفساد والانحطاط، ويحاول إعادة ترسيخ الواقعية الأكاديمية

AmeSea Database- ae- Abril-2017-0206

الدعائية بالتوازي مع قمع الاتحاد السوفيتي للفنانين التجريبيين لفرض الواقعية الاشتراكية المصطنعة.

ولكن سرعان ما تصحح الثقافة الغربية مسارها بعد كل أزمة، وتتوافر التجارب وتتوازى وتتقاطع في مناخ مشجع للإبداع والتجريب والمخالفة إلى أن تبزغ تيارات ما بعد الحداثة وتجلياتها التي تضع تاريخ الفن الغربي في مرحلة جددية من التحول الجذري أثر انفتاحا على فنون الآخر من ناحية، وعلى ووسائط وطرق التعبير الفني والعلمي والتكنولوجي من ناحية أخرى حيث تخطى الفنان التراث الفني بشكل تقليدي، بينما أبقى على روح الفن ومفهومه المطلق ، فصاريتعامل مع الفراغ ومع الفيلم والحركة والصوت كبديل عن التصوير والرسم والرقص والموسيقى، وأصبح يتعامل مع الوسائط المختلفة Mixed Media ومع المواد المتداخلة Intermedia.

وأصبحت الفنون الفردية غير كافية والمراسم غير كافية واحتاج إلى فراغات والى معامل والى دعم تمويلي وتقني وعلمي، ومولدات الطاقة وقوانينها يسعى لخلق بيئات تثير الحواس والطاقات كلها، وتحفز المشاهد على التفاعل معها وربما المساهمة الإيجابية في العمل مشاركا وناقدا للفنان، مما يتوافق مع جوهر البيئة الميكانيكة التي تميز الحضارة الغربية وثقافة التسويق.

يمثل الفن المعاصر وجها للنظام الاجتماعي القائم اليوم في عواصم الغرب، تجاري، يعتمد على التأثير الجماهيري، هو انعكاس للطرق المزدحمة وتلوث الجو، وتسارع وتضارب الأحاديث الإذاعية، وهذه المظاهر كلها عبارة عن صورة متوافقة للفن العصري متعدد الوسائط في الغرب، وأصبحت ظاهرة اختناق المرور وحركته وأصواته نمطا معينا لتحريك الناس والتحرك بينهم فإن ذلك كله قد انتقل إلى المتحف مع تعديلات طفيفة.

إنها الروح الدينامية في الواقع الاجتماعي المعاصر في الغرب حيث يتداخل الفن مع تيار الحياة دون حواجز، ولعل الدرس المستفاد من تأمل التحولات الفنية في الحضارة الغربية وقدرة هذه الحضارة على عبور مراحل الركود والجمود لتعاود النهضة هو ان الوعي والإرادة والمرونة الابتكارية في التفاعل مع على الظروف الاجتماعية والتاريخية هم مربط الفرس في جهود النهضة والتقدم والإحياء ، ومن ثم الحداثة ما بعدها.

وتقتضي تلك المرونة الإبداعية أن لا نلجأ إلى طرفي النقيض في تعاملنا مع الحضارة الغربية، فلا تسليم لهيمنته، ولا تصادم مع نموذج حاضري، ومن ثم يتوجب الفهم الواعي والتعرف السليم على حضارة الغرب و غيرها من الحضارات النابضة، وعدم الاعتماد على الظواهر والمواقف التعميمية سابقة التوليف.

AmeSea Database- ae- Abril-2017-0206